الفصل السادس

المورة

لم تكن حملة إبراهيم موفقة فى أول أمرها ، وذلك أنها بعد أن أقامت قليلا فى خليج مجرى Magri واصلت السير حتى جزيرة رودس ، فوصلتها فى الثالث عشر من أغسطس عام ١٨٢٤ . وهناك اتصلت بالأسطول التركى الذى كان يقوده خسرو . ورأى القائدان أن تكون تحية اجتماعهما حملة صادقة يبددان بها شمل الإغريق . ولم يكن ميولى Miauli وكنارى Canari أقل رغبة فى القتال من إبراهيم وخسرو . وكانا من البحارة المجربين ، يفهمان عقلية عدوهما ، و يعرفان أن خسرو — أو ضباطه على الأقل — أضعف من أن يحتمل هجوماً على غرة . ولذلك كانت خطتهما أن يبدءا بالهجوم ليمزقا شمل العمارة العثمانية ، قبل أن تنضم لها مراكب المصريين . وقد وصف أحد الضباط الفرنسيين الذين كانوا يعملون فى أسطول إبراهيم سير المعركة وصفاً موجزاً فقال :

« أقلعت سفن القبطان باشا (خسرو) فى أول النهار ؛ أما مراكبنا فتركت مراسيها فى الساعة الخامسة من مساء اليوم نفسه . و بعد أن أطلق القبطان باشا وسفنه على العدو طلقات قليلة ، نكصوا على أعقابهم ورجعوا إلى مقرهم ، ترتعد فرائصهم ، و يسكن الرعب جوانحهم ؛ وكان فرارهم من سفائن تجارية مسالحة . وقد غر ضباطها هذا الجبن ، فاندفعوا وراء أعدائهم ، حتى أتوا إلى مجاز ضيق ، وقفت فيه قوات أكثر منهم عدداً . وما وافت الساعة السادسة حتى التحمنا

بالعدو . ولكن بعض فرقاطاتنا رأت من الحكمة أن تخرج من المعمعة ، فبقينا وحدنا تقريباً ؛ واستطاع إبراهيم بجرأته وصادق بأسه أن يصد سيل الإغريق الجارف . فلما رأى هؤلاء أن أمامهم خصما قويا لم يحسبوا له حساباً من قبل ، هموا بالرجوع وارتدوا ارتداداً يشهد لهم بالبراعة »[١] .

واضطر إبراهيم على أثر هذه الهزيمة أن يرجع إلى كريد ، يترقب فرصة تسنح له ، لتمكنه من إنزال جيشه إلى بلاد المورة . ولا حاجة بنا إلى القول إن مسلك خسرو العجيب أمام شاطئ رودس لم يزد محمداً عليا وابنه إلا بغضاً لفكرة القيادة المزدوجة . ولقد كان خسرو والباشا من قديم الزمان خصمين استحكمت العداوة بينهما ؛ ويرجع أصلها إلى العهود القديمة أيام أن كان محمد على لا يزال ينازع المماليك السيادة على مصر . أما الآن فقد كان يحركه سبب أجل من الكراهية الشخصية ؛ ذلك أنه كان من بادئ الأمر يبغض فكرة تقسيم السلطة ، ولذلك كتب إلى الباب العالى فى ١٣ سبتمبر سنة ١٨٢٤ كتاباً جمع بين الأسف وشىء من الغبطة الشخصية فقال :

« يؤسفنى كل الأسف أن ما طلبته من توحيد قيادة الأسطول كله لم يجب ، وأن هذا الشرف لم ينله ولدى إبراهيم . وليس بخاف أن النصر فى المواقع الهامة لا ينال إذا عهد بالقيادة العليا إلى أكثر من رجل واحد . ذلك بأن اختلاف الرأى لا بد أن يؤدى إلى هذه النتيجة السيئة . وقد كانت الحوادث الأخيرة مع الأسف الشديد أكبر دليل على صدق هذه العقيدة »[٢] .

ولقد أثمر الثمرة المرجوة هذا التهديد المقنع ، الذى اشتملت عليه الفقرات

(١) دريو حملة كريد والمورة (١٨٢٣ — ١٨٢٨) ص ٤٠ .

(٢) مجموعة رسائل محمد على : القاهرة المطبعة الأهلية سنة ١٩١٣ الوثيقة رقم ١٥٨ .

الأخيرة من الخطاب ، وهو أن محمداً عليا و إبراهيم قد يضطران إلى التفكير فى الانسحاب من ميدان القتال ، إذا لم يعين إبراهيم قائداً أعلى للقوات البرية والبحرية المشتركة . وعلى ذلك ولى إبراهيم وحده قيادة الحملة التركية المصرية . وعندئذ صحت عزيمته على أن يقضى الشتاء فى كريد[1] . وما كاد يستهل فصل الربيع حتى أبحر إلى مودون Modon ، وهى ثغر فى بحر اليونان كان يعرف فى قديم الزمان باسم ميتون Methone ، فبلغه هو والقسم الأول من أسطوله فى ٢ مارس سنة ١٨٢٥[2] .

وكان إبراهيم شديد الحرص على هـذا السفر المبكر لأن عيونه أبلغوه أن النزاع قد دب فى معسكر الإغريق . وما أصدق ما قاله بلوتارك منـذ قرون من « أن التاريخ يعيد نفسه » . فقد ولدت اليونان الحديثة فى مهد النزاع والشقاق ، ولم تذق للسلم الداخلى طعما ، حتى وقت أن كانت تكافح فى سبيل وجودها ؛ بل كانت الأحزاب اليونانية فى عام ١٨٢٤ تتناحر ، وفى صدورها من الغل ما لا يقل عما كان فى صدورها منه فى عام ١٩٣٤ ، أو فى أى عام آخر نذكره من غير تفكير ولا تعمد .

شبت الحرب الأهلية بين الأحزاب اليونانية فى عام ١٨٢٣ ؛ ولما تم عقد القرض الكبير فى أوربا عام ١٨٢٤ وجاءهم بيرون Byron بالنجم الأول منه ، لم يكن هذا المال طريقاً إلى طلبتهم من الحرب الخارجية فحسب ، بل كان أيضاً سبباً جديداً من أسباب النزاع الداخلى . فقد كانوا من قبل يقتتلون لنيل السلطان فأصبحوا الآن يقتتلون أيضاً ليحرز كل منهم حظه من الغنيمة . وبدأت بذلك

(١) قطاوى فى كتابه السالف الذكر جزء ١ ص ٥٤ .

(٢) دربو حملة كريد والمورة ص ٥٥ .

« الحرب الأهلية من جديد »[١] ، كما تقول دائرة المعارف البريطانية . ولما دارت الدائرة على كولوكترونس Kolokotrones وحزبه زج هـذا الزعيم فى السجن كما زج جوناريس Gounaris فى السجن بعد ذلك بقرن من الزمان . ولم يقتل كولوكترونس ولـكنه اتهم فى إخلاصه ووطنيته . ولسنا نقصد بهذا القول أن التهم التى وجهت إليه كانت أصح أساساً من التهم التى وجهت إلى جوناريس أو التى توجه الآن إلى فينزيلوس Yenizelos ، بل كل ما نقصده أن إبراهيم رأى وهو فى مقره الشـتوى فى كريد عام ١٨٢٣ — ١٨٢٤ ، أن يسرع إلى بلاد المورة ليستفيد من الخلاف الداخلى المستحكم بين الزعماء اليونانيين .

وكان البحارة اليونانيون فى تلك الأيام ، سواء سميناهم وطنيين أو قرصاناً ، مهرة بواسل ؛ كما كان سكان الجزائر الذين انضموا إلى الجيش اليونانى وحاربوا تحت إمرة تشرش Church وكخرين Cochrane وفبفييه Fabvier وروش Roche ورينولد ده سانت چن دنجيلى Regnauld de Saint Jean d' Angily رجالا أنجاداً أولى بأس وعزم . ولـكن ما ذا تجدى الجرأة والبسالة والإقدام وسعة الحيلة ، إذا ما قعد بها الشقاق والغدر وراء صفوف القتال ، وكان أمامها جنود لا يقلون عن أصحابها قوة عزم وسعة حيلة وصدق وطنية ، يقودهم رجل كإبراهيم . وهكذا استطاع القائد المصرى أن يضرب الحصار على نوارين Navarine ، معقل بلاد اليونان . ولم يلبث هذا الحصن أن سقط فى يده فى الثـامن عشر من شهر مايو . وما وافى اليوم الثالث والعشرون من يونيـة حتى سلمت تريپولتزا Tripolitza ؛ وفى الخامس عشر منه كان الجيش يستحث الخطى نحو نوپليـا

(١) دائرة المعارف البريطانية الطبعة الثالثة عشرة تحت عنوان « حرب الاستقلال اليونانية » الجزء الثانى عشر ص ٤٩٤

Nauplia قصبة بلاد اليونان[١] . وارتاعت أوربا لما رأت من سرعة هذا الفتح ، فعقدت نيتها على أن لا يستكين الصليب للهلال ، وعلى أن لا يقذف إبراهيم فى البحر فبقييه Fabvier « الضابط الفرنسى القدير » الذى يقود « جنوداً ذهبت ريحهم وتضعضعت أركانهم »[٢]، وصممت على أن تقوم بعمل يرغم رجال السياسة على إنقاذ ذلك الشعب الباسل من الانقراض . لكن كيف يمكن الوصول إلى هذه النتائج ؟ وكيف يستطاع صد القائد المسلم المظفر وهو على أبواب النصر المبين الحاسم ؟ إن ذلك لا يكون إلا إذا استطاع الدعاة أن يدخلوا فى روع الناس أن القائد المصرى هو الشيطان بعينه ، هو أتيلا Atilla المستبيح دماء النساء والأطفال . وبذلك تحركت فى صدور رجال من ذوى الشرف والنزاهة عوامل البغضاء ، فأطلقوا لخيالهم العنان ، وأخذوا يتهمون إبراهيم بخرق حرمة جميع قوانين الحرب « المتمدينة » .

لقد أشرنا من قبل إلى ما يسميه دروفتى Drovetti ، القنصل الذى كان يمثل كلا من فرنسا والروسيا ، « الآراء الإنسانية » التى كان يسترشد بها محمد على عند ما وجه إبراهيم إلى بلاد اليونان . على أننا نسلم بأن الأوامر التى تصدر إلى الضباط فى الميدان ليست كبيرة الجدوى ، وأن أهم شىء فى المسألة هو كيفية تنفيذ هذه الأوامر . ولذلك كان من حسن حظنا أن عثرنا على شهادة رجل فرنسى يدعى لوفرنى Louvergne كان فى بلاد المورة أثناء الوقائع التى دارت رحاها فى عام ١٨٢٥ . وفى كتابه المنشور فى عام ١٨٢٦ ما يشهد بإخلاصه وأمانته قال :

« وفى اليوم الثانى تقابلت مع سليمان ..... ودار بينى و بينه حديث طويل

---

(١) صبرى فى كتابه السالف الذكر ص ٩٤ .

(٢) لين پول فى كتابه السالف الذكر الجزء الأول ص ٤٤٢ .

أخبرنى فى سياقه أن محمداً عليًّا حتم على ابنه أن يوسم نزوله فى بلاد المورة بميسم الرأفة ، لكى ينطبع فى نفوس رعاياه الجدد أنه لم يأت ليحاربهم بل ليهدئ ثورتهم » .

وبعد أن أيد لوڤرنى Louvergne بقوله هذا ما أنبأتنا به من قبل الرسائل القنصلية ، أخذ يصف ما كان للمال الذى جاء به بيرون من أوربا من أثر سيئ فى قوة اليونانيين المعنوية ، وبعد أن استنتج من ذلك أن إبراهيم لم يكن يستحيل عليه أن يصل إلى نوايا بشرائه ضمائر اليونانيين قال :

« ولو تم له ذلك لنادى به السكان والياً على المورة ، ولأعان هدنة عامة إرضاء لليونانيين الذين استسلموا له . ويؤيد رأيى هذا ما شهدته بنفسى فى سهول مودون Modon ؛ فقد رأيت الفلاحين اليونانيين يقبلون يد إبراهيم ، وهو يأمرهم بالانصراف قائلا لهم : أبلغوا الناس جميعاً أنى أبوكم وأننى لن أقسو إلا على العصاة الثائرين »[1] .

لكننا لا نعلق على هذه الشهادة أكثر مما تستحقه من الأهمية ، فقد يفهم البعض من قول إبراهيم : « إننى لن أقسو إلا على العصاة الثائرين » أنه كان يعامل أعداءه بمنتهى الشدة ، وإن كنا نحن لا نقبل هذا التأويل ، ونفضل أن ننظر إلى المسألة نظرة أخرى ، نقيم الدليل عليها من حياة لورد استرفورد ده ردكلف . فقد نقل استانلى لين پول عن چورج كاننج وزير الخارجية البريطانية وقتئذ أنه كتب إلى سفيره فى الآستانة يقول : « أظن أنى قد وصلت إلى ما يشرح صدرك إن لم أقل ما يرفع قدرك ، بعد أن هيأت لى سببا جديدا للتدخل ،

(١) ذكريات عن اليونان فى أثناء حملة ١٨٢٥ تأليف هـ . لوڤرنى طبعه فى باريس أڤريل ده جاستل سنة ١٨٢٦ ص ٦٧ .

أجلّ شأناً من أى سبب آخر كنا نستطيع أن نتعلق به للوصول إلى بغيتنا ؛ ذلك هو الخطة التى تسير عليها الحرب فى المورة فى الوقت الحاضر ، تلك الخطة البربرية التى ترمى إلى بربرة المورة . حقا لقد طالما رأينا الطرفين يسفكان دماء الأسرى ، لكن بيع الناس كالعبيد فى الأسواق ، وإرغامهم على ترك دينهم ، وإخراج المسيحيين من بلادهم ، وإسكان المسلمين فى ديارهم ، تلك كلها موضوعات (أستغفر الله بل حقائق) جديدة فى نوعها ، جديدة فى المبادئ التى تقوم عليها ، جديدة وغريبة فى آثارها ، ولم يكن أحد يتصورها من قبل . ويقينى أنه يستطاع اتخاذها أساسا جديدا للقول إن لم أقل للعمل . . . ومما يزيدنى حبا لها أنها لا شأن لها بأبامينونداس أو سانت پول (الرسول الموقر) »[1] .

ويبدو لنا أن هذه الرسالة التى بعث بها وزير خارجية إلى سفير له تظهر بأجلى بيان موقف الغرب من إبراهيم على الرغم من صفتها الشخصية . فهى تتهمه بسفك دم الأسرى ، ولكنها تقول إن اليونانيين سلكوا نفس هذا المسلك ؛ ولم تذكر لنا أى الفريقين كان هو البادئ بهذا العمل الشنيع . فإذا كان الثوار هم الذين بدءوا به فما أجدرهم بتحمل عواقبه كلها . ولما كانت معلوماتنا فى هذه الناحية ناقصة ، فإننا نقر صراحة أننا لا نستطيع أن نقف على الحقيقة بأكملها . لكننا مع ذلك نشعر بأننا لا نخطئ إذا استنتجنا مما كتبه چورج كاننج إلى ابن عمه أن وزارة الخارجية كانت تتلمس الحجج لتبرر بها هجومها على إبراهيم . والتهم التى توجه إلى إنسان يمثل هذا الروح تكاد تكون على الدوام عرضة للنقد والتجريح .

(١) لين پول فى كتابه السالف الذكر الجزء الأول ص ٤٠٣ ومعنى قوله إنها لا شأن لها بأبامينونداس أو سانت پول أنه لا شأن لها بالوطنية أو الدين بل أساسها المبادئ الإنسانية . (المعرب)

و يوافق صاحب سيرة لورد استرتفورد ده رد كلف على أن مايسميه چورج كاننج « بربرة » المورة لم يكن معظمه إلا دعاية محضة ، انظر إلى قوله :

« وكان الريس أفندى إذا ووجه بهذه المقابح أعرض عنها ، فأنكر بعضها وادعى أن فى البعض الآخر مغالاة ، وانتهى بقوله إن اليونانيين لم يكونوا خيرا من رجاله . ومما يؤسف له أن هذا القول صحيح كما يشهد بذلك سقوط ترپولتزا ونوارين ، فقد اضطلع الثوار بحظ وافر من الغدر والتقتيل ، حتى اضطر كاننج نفسه إلى الاعتراف بأنه على الرغم من حبه الخير للإغريق ، لا يستطيع أن ينكر أنهم جميعاً ، إلا قليلاً منهم ، فئة ضالة منحطة »[١] .

على أننا لا يسعنا أن نوافق على هذا الاتهام الشامل ، الذى يعزوه لين پول إلى لورد استرتفورد ده رد كلف . و إذا كنا قد نقلنا هذا القول فليس ذلك لأنه يتفق مع آرائنا ، بل لأننا نريد أن نظهر منشأ المطاعن التى وجهت إلى إبراهيم حين أراد كما يقولون أن « يبربر » المورة . فهذا القول يدل على أن الغرب لا يستنكف أن يغفر للإغريق ما اجترحوه من السيئات ، وأن يتذرع بالانتقادات والتهم والدعاوى الباطلة للطعن على القائد المسلم والتشهير به . ولا شك فى أن بلوغ تلك الغاية الخلقية من هذا الطريق عمل لا يتفق مع مبادئ الدين ولا العدالة فى شىء . . . ولكنها خطة أطلقت لسان هذا المؤلف نفسه بهذا القول :

« لو اطلعت على تاريخ الدبلوماسية كلها ، لما وجدت فيه فصلاً كله زور ومنقصة وتضليل ينكس الأبصار ، مثل ذلك الفصل الذى يشتمل على المفاوضات الأولى لتسكين بلاد اليونان »[٢] .

---

(١) لين پول الجزء الأول ص ٤٠٣ .

(٢) المصدر عينه الجزء الأول ص ٤١٠ .

وبينما كانت الحكومات الأوربية تجمع أمرها للعمل على تسوئة سمعة إبراهيم ، لكى تتحرر بلاد اليونان ، كان القائد المصرى يصلى العدو نارا حامية . وقد استطاع فى شهر سبتمبر من عام ١٨٢٣ أن يتصل برشيد باشا القائد التركى الذى كان محدقا بمسولنجى Missolonghi منذ شهور . وقد قاومت المدينة المحاصرين مقاومة الأبطال ، لكنها سقطت فى أيديهم فى الثامن والعشرين من شهر إبريل عام ١٨٢٦ .

فلما أثمر الحصار ثمرته النهائية المحتومة ، وسقطت مسولنجى وفتحت بذلك الطريق إلى أثينا ، أيقن جورج كاننج أن مصير اليونان أضحى فى يد الدول ، وأن تدخلها بشكل ما أصبح أمراً لا مفر منه إذا أريد استنقاذ هلاس للحضارة الأوربية . وسرعان ما هداه عقله اليقظ إلى أن دوق ولنجتن Duke of Wellington هو خير من يعهد إليه بتدبير خطة العمل مع قيصر الروسيا ، دون أن يفاوض فى ذلك فرنسا وبروسيا والنمسا . وكان ولنجتن قد أعان وهو عطل من الوظيفة أنه على استعداد دائم لخدمة مليكه فى أى منصب شاء ؛ فلما عرض أمر بعثة سانت بطرسبرج على الدوق لم يقبلها فحسب ؛ بل فرح بها كل الفرح[1] » .

وبدأ ولنجتن حملته السياسية فى الروسيا فى شهر فبراير من عام ١٨٢٦ ، وقد وصف جودلا هذه الحملة بقوله : « وقذف بنفسه فى تيار من الدبلوماسية ، تتخلله المآدب الروسية المكونة من الهليون الأصفر والقواقع البحرية . وكانت لياليه كلها كما وصفها بعضهم « بهجة ومرحاً للدوق » ، كما كانت أيامه كلها

(١) الدوق تأليف ڤليب جودلا طبعه فى لندن هدروا سوتن سنة ١٩٣١ ص ٣٤٦ .

سياسة واستعراضاً[١] » . وقد تمخض هذا الجو المشبع بالسرور والانشراح عن عهد يضمن لبلاد اليونان نوعاً من الاستقلال المقيد ، ترعاه إنجلترا والروسيا .

لكن يلوح أن الدوق قد تجاوز التعليمات التى زود بها . وكان چورج كاننج[٢] فى ذلك الوقت وزيراً من وزراء الدولة ؛ ومع أنه من الأحرار فقد جعله مركزه أكثر محافظة من (ولنجتن) الرجعى الذى لا يشغل منصباً فيها . ولذلك حصر رغباته فى تلك العبارة التى نقلناها من قبل « تقدم بها (الشكاوى التجارية) ولج فيها ، لأننا إذا كان لا بد لنا من إثارة النزاع فعلينا أن نضم المصالح التجارية إلى جانبنا » . وكان چورج كاننج يدرك أن هذه « المصالح التجارية » فى ربيع عام ١٨٢٦ فى صف اليونان ، لكنه كان يخشى أن لا يبلغ ارتباطها بها حدا يجعلها ترحب بالعهد الذى وقع فى ٤ أبريل عام ١٨٢٦ .

« وكان الدوق يكيف نفسه حسب الظروف ، وإن كان نقاده يحلو لهم أن يظنوا أنه لم يكن يعرف ما يفعل[٣] » . ومعنى هذا أنه إذا كان ما يقوله جودلا صحيحاً ، كانت الخطة السياسية النهائية التى أدت إلى استقلال اليونان ، من وضع رجل لا يعرف ما يفعل ، ولكنه مع ذلك تجاوز نص التعليمات التى زود بها . ولكن ما لنا ولهذا ، فسواء أكان ولنجتن قد تجاوز هذه التعليمات أم لم يتجاوزوها ، فإن الاتفاق الإنجليزى الروسى الذى وقع فى ٤ أبريل من عام ١٨٢٦ أصبح حقيقة واقعة ، ويجب النظر إليه على أنه كذلك . ولقد استيقظ على أثره مترنيخ Metternich من سباته ورجعيته ، فسمى چورج كاننج « آفة العالم[٤] » .

(١) المصدر عينه ص ٣٤٨ .
(٢) المصدر عينه فى نفس الموضع .
(٣) المصدر عينه فى نفس الموضع .
(٤) تاريخ اليونان السياسى من ١٨٢١ إلى الوقت الحاضر جزء أول ص ٣٢٠ .

ولم يلبث مترنيخ أن رأى أن المعايرة لن تغنى عنه شيئاً ، وأن من الحكمة أن يساير الزمن . وظلت فرنسا ترقب مجرى الأمور ، فلما تكشفت لها سارت هى الأخرى مع التيار . وكان ملكها قد وصلته من مصر أربعة جياد وفيل صغير ، أما ابنه ولى العهد فقد أهديت إليه أربعة جياد وليس معها فيل ، فى نظير البعثة الحربية البحرية التى أرسلت إلى مصر لتشترك فى تأديب اليونانيين [١] . وقد امتعض مستشارو شارل العاشر أيما امتعاض من الخطة التى جرت عليها إنجلترا والروسيا ، إذ أخفيتا عنها مكنون دخيلتها . واحتفظ الملك وولى عهده بالفيل والجياد ، وطالبت البعثات الفرنسية أن يتسع عهد ولنجتن — نسلرود Willington Nesselrode حتى يصبح عهداً يتحلى بتوقيع ممثل لفرنسا [٢] .

فلما أصر المسيو ده ڤليل M. de Villèle هذا الإصرار على أن الضمان غير كاف ، وعلى أن تكون فرنسا « أحد المتعاقدين » ، تحول مجرى الأمور ، وتبين أن الدول أخذ ينافس بعضها بعضاً لترى أيها تستطيع أن تكون أكثر زلفى من هذا الكوكب الجديد ، الذى أوشك أن يسطع فى سماء جماعة الأمم . وكانت نتيجة هذا التنافس أن عقدت المعاهدة المعروفة بمعاهدة لندن فى السادس من يوليه عام ١٨٢٧ . وبمقتضى هـذا الاتفاق عرضت إنجلترا وروسيا وفرنسا وساطتها على تركيا بقصد إنهاء الخلاف القائم بينها وبين اليونان .

وقد نصت إحدى مواد هذا الاتفاق على أنه إذا لم يقبل الباب العالى هذه الوساطة فى خلال شهر من الزمان ، ويوافق على وقف القتال ، فإن الدول تتفاوض فيما بينها « لتفرض الهدنة على الطرفين بمنعهما من مواصلة القتال ، من

(١) حملة كريد والمورة تأليف دريو ص ٥٢ .
(٢) تاريخ اليونان السياسى جزء ١ ص ٣٤٥ .

غير أن تشترك هى فى الحرب »[1]. وليس فى مواد المعاهدة كلها ما يوضح الطريق الذى كانت إنجلترا والروسيا وفرنسا تفكر فى سلوكه لبلوغ هذه الغاية ، ولكنه يذكر مع ذلك « أن أمراء الأساطيل المختلفة فى شرق البحر الأبيض المتوسط سيتلقون التعليمات الضرورية » ، وقد كتبت هذه التعليمات بالفعل وأصبح من المستطاع تحليلها .

و بينما كانت هذه المناورات الدبلوماسية قائمة على قدم وساق ، لم يكن إبراهيم يضيع وقته سدى ، بل استولى فى أثناء ذلك على أثينا بعد استيلائه على مسولنجى وضرب الحصار على الاكروپولس Acropolis ، ودار القتال حولها ودافع عنها اليونانيون بقيادة الكولونيل فيفييه دفاع الأبطال . ولكن الدائرة دارت عليهم فولوا الاورد كخرين Lord Cochrane (إرل دندونالد Earl Dundonald) قيادة الأسطول ، وعقد لواء الحملة البرية للجنرال تشرتش الذى أصبح السير رتشرد تشرش Sir Richard Church فيما بعد . ولكن ذلك لم يغن عنهم شيئاً ، ولم يمح ما خط لهم فى لوح القضاء ، فسلمت الإكروپولس فى الخامس من شهر يونيه عام ١٨٢٧ .

ولا جدال فى أن هذا القضاء المبرم قد عجل بتوقيع معاهدة لندن فى السادس من يولية سنة ١٨٢٧ . وذلك لأن الدول أيقنت أنها إذا لم تتدخل فى الأمر تم لإبراهيم الظفر . وكان أعدى أعداء الإغريق هو ما طبعوا عليه من انقسام لا تشفى منه نفوسهم . فقد كانت الجمعيات المتنافسة والرؤساء المتعادون يتقاتلون على السيادة ، بينما كان الحصار مضروباً على مسولنجى ، ولم يحل شهر مارس من عام ١٨٢٧ حتى عمت الفوضى صفوف الإغريق . وقد قالت فى ذلك دائرة المعارف البريطانية

(١) المصدر عينه ص ٣٦٦ .

« استعرت نار الحرب بين روميليوتس Rumeliotes ، موريوتس Moreotes و بين كل زعيم وزعيم ؛ وأخذت الأحزاب المتنافسة تضرب بعضها بعضاً بالمدافع من قلعتى نوبليا مستهزئة بالحكومة العاجزة ، على مرأى من المدينة البائسة » .

و بعد أن برهنت دائرة المعارف البريطانية على أن أغريق عام ١٨٢٧ ، مهما بلغت شجاعتهم ، قد أضحوا وقتئذ جماعات من الرعاع ، قطع النزاع الحزبى أوصالهم بعد أن برهنت على ذلك قالت :

« و بعد أن ظل إبراهيم عدة شهور لا يعمل شيئاً بدأ ينفذ خطته التى ترمى إلى تخريب البلاد تخريباً منظما . ولكى تحول الدول بينه و بين هذا العمل ، قررت أن تتدخل فى الأمر ، فتقوم أساطيلها بمظاهرة مشتركة لكى تقف سير القتال ، وترغم إبراهيم على إخلاء بلاد المورة » .

و يتضح من هذا أن ما عزاه چورج كاننج إلى إبراهيم من أنه « يبربر » المورة كان يقصد به أن تتذرع به الدول للتدخل فى المسألة اليونانية . ولكنهم يقرون مع ذلك أن إبراهيم ظل لا يقوم بعمل ما عدة شهور . ولذلك لا يبعد أن تكون الدماء التى أريقت وثارت من أجلها نفوس أوربا ، لم يرقها سيف إبراهيم ، بل أراقتها سيوف اليونانيين فى كفاحهم الداخلى . ذلك بأن الأحقاد الأخوية ، إذا استثير دفينها ، تعمى أبصار الأشقاء وتذهب بعقولهم . ومن هم الذين يستطيع إبراهيم أن يفاوضهم إذا كانت القرى تستسلم إليه واحدة إثر واحدة ، و إذا لم تكن فى صفوف اليونانيين سلطة تتولى أمورهم وتمثل القانون والنظام ؟ ولا يبعد أن يكون إبراهيم قد اضطر إلى اتخاذ إجراءات صارمة ، لا لقسوة فى طبعه بل بسبب الفوضى التى ضربت أطنابها فى بلاد اليونان . ولكن الذين يستطيلون فى عرضه ، و يصوبون سهامهم إلى سمعته ، يغفلون عن هذه الحقائق ، و يفضلون أن يصوروه

بصورة الرجل الهمجى المتعطش لسفك الدماء .

وفى استطاعة الإنسان أن يتبين مقدار الصعاب التى كان يواجهها إبراهيم من الرسالة الرسميـة التى بعث بهـا أمير البحر ده رنى Admiral de Rigny إلى وزارة البحرية ، والتى يقول فيها : « يفرض الناس عادة أن الحكومة اليونانية سلطة معترف بها ، إن لم يكن فى البلاد كلها فلا أقل من أن يكون فى المناطق التى لا تخضع لحكم الأتراك ، وأنها هى التى تسير الحركات الحربية ، وأن لها أسطولا يأتمر بأمرها . وهذا ظن بعيد عن محجة الصواب ؛ فالجيش إذا وجد يقوده اليوم ضابط وغدا ضابط آخر ؛ أما السفن فهى ملك لأصحابها ، تخضع لأمرهم ، وبحارتها يخدمون الميوليين Miaulis يوماً ثم يتركونهم ليقوموا بخدمة الكناريين Canaris يوماً آخر وقلما يثبتون على ولائهم لزعيم[1] . »

ولم يكن الساحل اليونانى إلا مباءة للقرصان ومعششاً لهم ؛ وقد صور لنا دون Douin صورة البلاد فى ذلك الوقت بقوله :

« لا تستطيع سفينة أن تسير بمفردها عشرة فراسخ حتى تهاجم . ذلك بأن القرصان يكمنون وراء صخورهم ينتظرون قدوم السفن التجارية ، حتى إذا وقفت واستيقنوا من عزلتها ، خرج اللصوص عليها من مكامنهم المجهولة فى قوارب الصيد . وهم لا يخرجون إلى البحار إلا إذا وثقوا من قدرتهم على غنيمتهم ؛ وليس فى الاستطاعة القبض عليهم ولو جهزت لذلك خمسون بارجة حربية ؛ ولا سبيل إلى تطهير البحر منهم إلا إذا أنزلت حملة إلى البر وطاردتهم فى داخل البلاد »[2] .

وهذا ما قام به إبراهيم بالضبط . فحربه إذاً كانت حرب المدنية على القرصنة ،

(١) من ده رنى إلى الوزير فى ٢٣ مارس سنة ١٨٢٦ نقله عنه دون فى الصفحة الثامنة من كتابه « نوارين » .

(٢) المصدر عينه ص ٤ .

حرب الشمائل الكريمة على التخريب والإتلاف ؛ ولكن عرضه أصبح غرضاً لسهام الكاملين ، لا لشيء إلا أنه مسلم ، ولأن العابثين المفسدين مسيحيون . ولسنا نحاول بهذا القول أن ندخل فى روع القارئ أن إبراهيم خليق بأن يثبت اسمه فى سجل الشهداء أو القديسين ، ولو حاولنا لما استطعنا وأمامنا قول موريه Mouriez :

« كان سقوط مسولنجى إيذاناً بسقوط أثينا وكل بلاد اليونان . وعاد إبراهيم بعد ذلك إلى أرض البلوبونيز Peloponnesus مغضباً لما لحقه من الخسائر أثناء الحصار . وهناك أخذ يثأر لنفسه ، فارتكب فى هذه البلاد من الفظائع ما يربى على ما ارتكبه من قبله الأتراك والألبانيون . وكان الذى أثار غضبه بوجه خاص ما اقترفته عصابات الكلفت (اللصوص) الذين كانوا يفرون أمام فيالقه ، ثم يهاجمون حراس مؤنه ومخافره . ولما عجز عن القبض عليهم خرب الديار ليثأر لنفسه منهم ، فقطع أشجار الزيتون وأحرق الزرع وقتل العزل من الأهلين »[1] .

وتلك الأمور هى التى بررت قول چورج كاننج : « كثيراً ما رأينا الجانبين المتقاتلين يسفكان دم الأسرى » ؛ ولكن إبراهيم قد التجأ إلى القصاص ، ولم يبدأ بالعدوان حتى شرع اليونانيون يطلقون النار على اليونانيين ، وحتى عجز عن أن يجد منهم وراء صفوف القتال من يستطيع أن يفاوضهم ، وحتى خرقت العصابات المسلحة كل قوانين الحروب المتمدينة .

قد لا يكون فى هذه الحقائق كلها ما يبرر مسلكه ، ولكن فيها ما يدمغ موقف الدول بالنفاق الخبيث ، وما يبرر قول لين پول الذى نقلناه من قبل وهو :

(١) موريه فى كتابه السالف الذكر ص ٢٩٨ .

« لو اطلعت على تاريخ الدبلوماسية كلها لما وجدت فيه فصلا كله زور ومنقصة وتضليل ينكس الأبصار ، مثل ذلك الفصل الذى يشتمل على المفاوضات الأولى لتسكين بلاد اليونان » .

ومما يعلى من قدر القيكونت استرتفورد ده رد كلف أنه قبل أن يعين سفيرا لجلالة ملك بريطانيا فى الآستانة ، قرر أن لا تعود اليونان مرة أخرى إلى حكم الأتراك . وفى ذلك يقول صاحب سيرته : « إنه أرسل لكى يعمل لبلوغ هذه الغاية . ومع أنه عرف من أول الأمر ما سوف يلاقيه من العقبات ، فإنه جد فى العمل لهذه القضية بكل مافى طاقته »[1] ، وليس يسع المؤرخ المسيحى إلا أن يحمد له نبيل مقصده ، وأن يعجب لثباته وصلابته ، و يغتبط بما حققه من غايته ؛ ولكنه لا يستطيع أن يرضى بالمثالب التى وجهت إلى اسم إبراهيم ، ولا بالسجف التى تسدل عادة على ما اتصف به اليونانيون من نقائص ، وما استباحوا من دماء لم يفرقوا فيها بين أعدائهم الأجانب وخصومهم من أبناء البلاد .

---

(١) اين پول الجزء الأول ص ٣٩٨ .